Journal of Faslo el-khitab مجلة فصل الخطاب
ISSN: 1071-2335/ E-ISSN: 2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 09، عدد رقم: 03، سبتمبر 2020، صص: 109- 136

تاريخ الاستلام (2020/03/06) تاريخ القبول (2020/09/07) تاريخ النشر (2020/09/30)

التحليل السيميائي للخطاب الروائي:
"القوس والفراشة" لمحمد الأشعري أنموذجا

Semiotic Analysis of Narrative Discourse:
"Arch and the Butterfly" by Muhammad Al-Ash'ari as a model

عبد الرحمن بوعلي

جامعة الشارقة (دولة الإمارات العربية المتحدة)، aboualifr@gmail.com

ملخص:

تهدف السيميائيات إلى البحث في عالم المعنى وطريقة تشكله، فهي تتخذ المعنى موضوعا للتحليل كاشفة في الوقت نفسه عن القوانين والقواعد التي تتحكم في توليد الدلالة، ومما تركز عليه القراءة السيميائية البحث عن القانون الذي يتحكم في تجميع الأجزاء المكونة للنص حتى يتشكل المعنى, ووفق هذا التحديد فالنصوص السردية ما هي إلا تمظهرات للمعاني. ولقد طور ألجيرداس غريماس الدراسة السيميائية السردية فجعلها تنقسم إلى ثلاثة مستويات وهي: المستوى الخطابي, والمستوى السردي, والمستوى العميق. ويتلخص بحثنا في قراءة إحدى الروايات المهمة في الأدب المغربي وهي "القوس والفراشة" التي حظيت بجائزة (البوكر)، وسنحاول من خلاله أن نكشف عن دلالات الرواية، مستفيدين من القراءة السيميائية.

المؤلف المرسل: الاسم الكامل، الإيميل: aboualifr@gmail.com

كلمات مفتاحية: السيميائيات، عالم المعنى، المستوى السطحي، المستوى العميق، القراءة السيميائية.

Abstract:

Semiotics aims to investigate the world of meaning and the way it is formed. It takes meaning as a subject for analysis, revealing at the same time the laws and rules that control the generation of semantics, And what the semiotic reading focuses on is the search for the law that controls the grouping of the component parts of the text until the meaning is formed, and according to this definition the narrative texts are nothing but meanings manifestations. Algirdas Grimas has developed the narrative semiotic study by splitting it into three levels: the discursive, the narrative, and the deep level. Our research is summarized in reading one of the important novels in Moroccan literature, "The Bow and the Butterfly", which won the (Booker) prize, and through it we will attempt to reveal the connotations of the novel, benefiting from the semiotic reading.

Keywords:

semiotics, the realm of meaning, Aljerdas Greimas, semiotic reading, sword and butterfly, Muhammad al-Ash'ari.

من المعلوم أن "سيميائيات الدلالة" تبحث عن "عالم المعنى" وعن طريقة تشكله داخل العمل الأدبي، فهي تتخذ المعنى الأدبي موضوعا للتحليل، حيث تقوم بالكشف، في ذات الوقت، عن جميع القوانين والقواعد الثابتة التي تتحكم في توليد الدلالات في تمظهراتها النصية، ويميل أصحاب هذه النظرية إلى الجانب التطبيقي على عكس المدارس السيميائية الأخرى التي تشير إلى التصورات النظرية لعلم السيميائيات كما هو حال الاتجاهات السيميائية عند (دو سوسير وبيرس) التي تعد مجالا علميا وحقلا نظريا أيضا، ولكن مع مدرسة باريس السردية تحولت السيميائيات إلى منهج وأداة لتحليل النص الأدبي.

ومما سنركز عليه في هذه القراءة السيميائية البحثُ عن كل ما يحكم تشكل المعنى في النص الأدبي. ونحن ننطلق من تحديد تقوم عليه السيميائية وهو أن النصوص السردية ما هي إلا تمظهرات للمعاني موضوع القراءة السيميائية، ولهذا تتصدى السيميائية لقراءة هذه النصوص عبر استنباط المعاني الكامنة فيها.

وإذا كان السيميائيون، وعلى رأسهم ألجيرداس غريماس، يقسمون الدراسة السيميائية السردية, حسب المنهجية المعتادة لديهم، إلى ثلاثة مستويات مختلفة، وهي؛ المستوى الخطابي، والمستوى السردي، والمستوى العميق[1]، فانطلاقا من هذه الخطة سنبني بحثنا هذا، وسيكون هدفنا أن نقارب خطاب إحدى أهم الروايات العربية التي رأت النور في العقد الأول من القرن الحالي، وهي رواية "القوس والفراشة" لمحمد الأشعري التي حظيت باهتمام كبير من النقاد والمشتغلين بالسردية العربية، وتوجت، وهذا دليل نجاحها، بجائزة من أكبر الجوائز (البوكر العربية). وليس ما شدنا إلى هذه الرواية أهميتها الفنية والجمالية فحسب، بل تلك الرغبة التي صاحبت هذه القراءة في مساءلة متن هذه الرواية من خلال اعتبارها رواية تمثل انعطافا روائيا يتأطر ضمن أفق جديد بدأت تشهده الرواية العربية وهو ما يمكن تسميته بمرحلة رواية "العوالم المضطربة" هذه المرحلة التي ترافقت مع نشوء وانبثاق نظرية فلسفية هي نظرية الكاوس أو نظرية الفوضى، وبناء على ذلك، سنحاول من خلال قراءتنا هذه أن نكشف عن الدلالات الثاوية فيها، متتبعين استراتيجية القراءة السيميائية التي حازت قصب السبق في التحليلات السردية.

2. بعض الدراسات السابقة حول رواية "القوس والفراشة":

نشير في البداية إلى أن ما أنجز من أبحاث حول رواية "القوس والفراشة" لمحمد الأشعري، قليلٌ بشكل ملحوظ، وقد يجوز لنا أن نؤكد أن الرواية رغم أهميتها، نصا أدبيا وعملا سرديا، لم تنل نصيبها من الاهتمام، سواء من خلال دراستها انطلاقا من مناهج عادية جدا أو مناهج جديدة من قبيل المنهج السيميائي أو المنهج التفكيكي أو غيرهما من المناهج التي أصبحت تمثل الريادة النقدية في عصرنا الحالي. فمن بين الدراسات التي قاربت هذه الرواية نذكر:

1. دراسة بعنوان "القوس والفراشة" مرثية اليسار أو زمن التحولات" بقلم محمد إسماعيل2، حاول فيها الكاتب أن يلخص جوهرها بحيث رأى فيها أن الأشعري "جعل الرواية في بعض صفحاتها مرثية لليسار المحتضر، وتذكر ماضي أصحابه المترع بالصفاء، وحاضرهم الممسوخ المتحول".

2. دراسة بعنوان "سياقات حكائية متعددة في رواية "القوس والفراشة"" لمحمد ولد محمد سالم3،وقد رأى الكاتب في هذه الدراسة "أن الرواية هي في حقيقة الأمر مجموعة من القصص"، تبدأ بقصة اختفاء ياسين، ثم القصة الثانية هي قصة أصدقاء يوسف من رفاق النضال اليساري، ثم القصة الثالثة تتعلق بالانفجار العقاري في مدينة مكناس، ثم القصة الرابعة عن محمد الفرسيوي والد البطل ثم القصة الخامسة هي اختفاء عصام، وهو ابن إبراهيم الخياطي بالتبني...4

3. دراسة بعنوان "القوس والفراشة" للروائية العراقية عالية ممدوح، ترى فيها الكاتبة والروائية العراقية أنها "قراءة فريدة لمجموعة وقائع مغاربية "إقليمية" وعالمية لسطوة الفعل الجهادي / التكفيري لمجموعة صيرورات تشكلت في غفلة أو علم منا أو منهم، أو منه هو، الراوي يوسف الفرسيوي"5.

4. دراسة بعنوان "الشعري في رواية القوس والفراشة" لحورية الخمليشي6، وقد رأت المؤلفة في هذه الدراسة أن الرواية متميزة عدا عن كونها "تمتاز عن النمط الروائي السائد باختراق الشعري الذي يشكل سمة مميزة لسرديتها في تمازج يصعب معه تصنيف الجنس الأدبي"7، ثم تؤكد قائلة "في رواية الأشعري نوع من تجاور الأجناس: الشعر والتشكيل والسرد والحكي. إن سمو الجنس الشعري في الكتابة السردية عند الكاتب والانتصار لإنسانية الشعر، جعله ينقل مقومات الشعر إلى الرواية التي انتصر فيها لمعاني الشعر، هذه المعاني التي كانت عنده المجال الأول للكتابة والإبداع. إبداع يُثير في المتلقي الانفعال الشعري، أو حالة شعرية"8، ثم ترى أنها رواية تبدأ "بالورطة عند الفرسيوي وتنتهي في الفصل الأخير بعنوان الفراشة، أي بين التورُّط الجميل في الكتابة عند الفرسيوي بحثاً عن الأمل رغم الضياع دون إحصاء للخسارة والممتلكات وانتهاءً بحلم الفراشة. إنها كتابة تبدو عند يوسف الفرسيوي ممارسة ووظيفة تسعى إلى تغيير الكثير من الأفكار والمشاعر لتتحوّل إلى خلق"9.

لكن الدراسة التي عالجت هذه الرواية بكثير من الحذق والعمق، والتي، إضافة إلى ذلك، شدتني كثيرا إليها هي دراسة بعنوان "الفقدان والخراب في رواية (القوس

والفراشة) لمحمد الأشعري" للدكتورة فرح مهدي صالح من جامعة القادسية – كلية التربية، قسم اللغة العربية. ففي هذه الدراسة العميقة حاولت الباحثة أن تبحث عما تم فقدانه وتخريبه، والحق أن جوهر الرواية ينبني على هذا المفقود والمخرب، المفقود هو قيم المجتمع المسالم الداخل لتوه في عصر الحداثة والمعرفة، والمخرب هو عقل هذا المجتمع وضميره، وهو شبابه الذي بدأ ينحو نحو أساليب العنف والتدمير، وهو طبيعته الخلابة التي بدأ يأكلها الإسمنت .....

تقول الباحثة في مقدمة بحثها: "يتناول هذا البحث دراسة ثيمة (الفقدان والخراب) في رواية (القوس والفراشة) للروائي المغربي (محمد الأشعري)، لما تحتله هذه الرواية من أهمية في المشهد السردي العربي المعاصر، بسبب تناولها لقضايا عديدة، من أبرزها قضية الإرهاب، والتطرف، وفشل اليسار، و الصراع مع الآخر، وما نجم عنه من صراع الذات الانسانية مع الواقع، وما تعانيه من توتر وقلق وضياع، مما أدّى الى شيوع الخراب وهيمنته على الرواية برمتها، حتى غدت نوعا من التأمل في الخرائب التي تشهدها الحياة المعاصرة وتعبير عن المتحول والمنغلق والملتبس"10.

3. المقاربة السيميائية والبحث عن انبثاق المعنى:

تلك بعض الدراسات التي تناولت الرواية التي نحاول أن نكشف عن معالمها وجوهرها، وأن نظهر القضية التي تحاول أن توصلها إلى قارئها. لكن السؤال الجوهري يمكن صياغته على النحو التالي: كيف ينبثق المعنى من النص الأدبي، والنص الروائي على وجه التحديد، وخاصة من خلال النص الروائي العربي الذي بدأ يظهر وينتشر في بداية العقد الأول من القرن الواحد والعشرين؟ سؤال قد يبدو بسيطا للغاية، لكنه بالرغم من بساطته فهو سؤال ملغز ومورط وصعب الإجابة. وفوق هذا وذاك هو سؤال ذو أهمية كبيرة، حيث نجده يكتسي كل أهميته بعد أن تعقدت أساليب الكتابة الروائية في عصر طغت فيه العولمة وتأكد فيه انتشار وتوسع التكنولوجيات الحديثة. أضف إلى ذلك، أن السيميائيات منحته كل جهدها لتبوئه المكانة التي يستحقها.

لقد قامت السيميائيات باعتبارها فرعا من فروع علوم اللغة واللسانيات، أو باعتبارها شاملة للسانيات كما يرى آخرون، لتقدم الإجابة الشافية عن كيفية انبثاق

المعنى من تلافيف وتجاويف النص الإبداعي، وذلك وفق استراتيجية مدروسة تبنتها وطورتها طيلة العقود الأخيرة. لكننا ونحن نحاول أن نبحث في هذا المحور . محور العلاقة بين الرؤية المنهجية للسيميائيات كاستراتيجية للقراءة غايتها التحليل والاكتشاف والإضاءة، وبين نص روائي معاصر نريد أن نقوم بتحليله واكتشافه وإضاءته، نرى أن هذا اللقاء بين السيميائيات باعتبارها علما للعلامات وبين النص الروائي باعتباره تجسيدا لرؤية صاحبه الاجتماعية والثقافية والفكرية، إنما هو لقاء خصب من حيث القضايا التي يمكن أن يثيرها سواء بالنسبة لرؤيتنا نحن للعمل الأدبي، أو بالنسبة للعمل الأدبي نفسه.

لننطلق أولا من الفكرة التي عبر عنها جوزيف كورتيس من أن "السيميائيات تتحدد بكونها العلم الذي يدرس تمظهرات المعنى، وسيرورات الدلالة، وذلك في سياق أكثر اتساعا من سياق التواصل..."11، ومن أن الأمر يتعلق بالتأكيد بخطاب على خطاب، (أو بميتا . خطاب)، وذلك بالنسبة "لعالم المعنى الذي ترى فيه السيميائيات موضوعا للتحليل، وموضوعا عابرا للتشفير Un transcodage"12.

إن هذا الخطاب الذي يُبنى على خطاب آخر، أو بتعبير أكثر بساطة، إن هذا الخطاب الثاني هو ما نسعى إلى استدعائه هنا لنضيء، من خلاله وبه وعن طريقه، عتمات "المعنى" في رواية مليئة بالدلالات هي رواية "القوس والفراشة".

بهذا المعنى، وبغض النظر عن كونها جاءت من اللسانيات أو أن اللسانيات هي التي جاءت منها، وبخلاف التحليلات التقليدية التي عادة ما كانت تخلط في تحليلاتها بين محاور أو مستويات جد متباينة، بيوغرافية، وتاريخية، وسوسيولوجية، ونفسية، وأسلوبية الخ...، نرى أن السيميائيات نشأت وطورت إجراءاتها لتحقيق هدف واضح، هو بكل بساطة، البحث عن المعنى بين تلابيب وتجاويف النص، وأنها لكي تقوم بهذه الوظيفة ونقصد بها مقاربة "المعنى" le sens ، فإنها ترى أن هذه المقاربة لا يمكن أن تتم، كما يرى بحق كورتيس، إلا بواسطة مقاربات متنوعة ومحددة أي حسب مستويات مختلفة تحددها هي الأخرى مجموعة من التحديدات تتشارك فيها مع الموضوعات التي تنهض بدراستها وتحليلها13.

من اللازم التذكير هنا أيضا، ونحن نحاول أن نحدد سياقات المقاربة السيميائية، وكما يرى كورتيس مرة أخرى، أن أحد أهم الموضوعات التي تهتم بها السيميائيات في معظم مقارباتها وتحليلاتها ودراساتها هو ما نسميه بـ السردية la narrativité، هذه السردية التي تترجم حياة البشر وتمنح لحياتهم أبعادا جديدة نستخلصها عن طريق القراءة والتأويل.

إن السيميائيات في هذا السياق تحاول أن تستخرج مجموعة القوانين التي تحكم جزئيا إن لم يكن كليا هذا العنصر المركزي الذي يعم حياتنا ونقصد به قدرتنا على الحكي. لقد أشار كورتيس إلى كريماص عندما أشار إلى أنه إلى جانب السيميائيات التأويلية، نشأت السيميائيات الشكلية la sémiotique formelle أو سيميائات الأشكال التي ترتبط بها السيميائيات الحكائية. وقد أشار المؤلف إلى أن السيميائيات ربما خرجت أو انبثقت عن اللسانيات، فالعلاقة بين اللسانيات والسيميائيات أمر مفروغ منه ولا نقاش فيه. فالدال (= الشكل اللساني) والمدلول (= القصة التي تحكى) مستعاران من دو سوسير في حين يأتي التعبير والمضمون من صياغة هيلمسليف. إن القاعدة تقول إن كل تغير في التعبير يقابله تغير في المحتوى.

في هذا الاتجاه تشكل لنا "السردية" ملمحا مهما من ملامح الحياة المعاصرة. فالكتاب الروائيون الذين همُّهم الأول هو سرد القصص والحكايات وكتابة الروايات، كان لهم، ولا يزال، هاجس واحد، هو أن تكون هذه القصص والحكايات والروايات مجسدة لواقعهم بهذا القدر أو ذاك.

وفي نفس السياق، وللتمثيل، يبدو أن الكتاب المرجعي المهم لـ د. . بولكينجورنD. Polkinghorne، وهو الأستاذ الاستشاري والطبيب النفساني الممارس، والمعنون بـ "المعرفة السردية والعلوم الإنسانية"14 Narrative Knowing and the Human Sciences (1988) هو واحد من المؤلفات التي مثلت هذا الاهتمام. ولعل ما أشار إليه د. بولكينجورن من أن "السرد يشكل الخطاطة التي عن طريقها يمنح الناس معنى لتجاربهم عن الزمنية ولأعمالهم الشخصية... إن المعاني أو الدلالات السردية والحكائية تقدم إطارا يتيح فهم الأحداث السابقة في حياة شخصية ما، واستشراف

أحداث مستقبلها"15. في كتابه أيضا، يؤكد د. بولكينجورن، أن "البشر موجودون في ثلاثة مجالات، في العالم المادي، والعالم العضوي، وفي عالم المعنى"16.

هذا يعني أننا عندما نقرأ نصا روائيا، فنحن لا نقرأه باعتباره مجرد قصص وحكايات منفصلة ومفصولة عن حياة صاحبها وقارئها والمجتمع الذي كتبت فيه وعنه وله، بل نقرأه كشيء أعمق وأوسع من ذلك، شيء يضيء العتمات التي لا يضيئها أي نور، والمتاهات التي تختفي فيها الروح، شيء ينبثق من جوانية روح الإنسان.

ولا شك في أن العديد من الروايات التي صدرت في السنوات الأخيرة تحتاج إلى أن تقرأ ليس باعتبارها مجرد كتابات سردية وحكائية، بل باعتبارها شهادات عن عصر مضطرب أشد الاضطراب، شهادات تحمل آثار تجذر الإنسان في الوجود، وتحيل إلى وجود لم يعد مقبولا البتة. إنه الأمر الذي يمكننا من التحدث عن ميلاد ظاهرة دلالية جديدة، ظاهرة مرتبطة بنظرية الفوضى la théorie du chaos، ونظرية العماء la théorie de cécité كما تم التنظير لهما والدفاع عن وجودهما. يقول د. حميد لحميداني " إن نظرية الفوضى كما طرحها أصحابها ، انطلقت مع الأبحاث التي قام بها في أواخر القرن التاسع عشر، العالم الرياضي الفرنسي: هنري بوانكاري Henri Poincaré، وهي نظرية طواها النسيان لمدة طويلة حتى حدود سنة 1960، ثم بدأ تطبيقها في المجال الأدبي في 1990"17. ومما يميز هذه النظرية كونها، كما أوجزها باتريك برادي، ونقل عنه ذلك د. حميد لحميداني، تنبني على مبادئ يمكن أن نذكرها كما يلي:

"- وجود نظام ما في حالة اختباء ويكون مُستترا خلف مظهر من الفوضى.

- أن تكون هناك صدفة قَسرية، أي حركة غير منتظمة داخل حدود مقررة.

- غياب المسار الخطي بمعنى عدم التناسب بين السبب والنتيجة.

- حضور نوع من التشابه الذاتي مُمثل نموذجيا بتقسيمات معينة على هيئة أشكال غير منتظمة تتكرر من مُستوى إلى آخر"18.

لعلنا لا نبالغ لو تحدثنا هنا عن الحضور القوي لمثل هذه الظاهرة التي تقدم لنا العالم وهو في حالة فوضى وغليان، هذه الفوضى التي صارت من مكوناته الأساسية والتي بمقتضاها يتهيأ لنا أن العالم سائر إلى انهيار أو دمار.

4.الرواية و"عالم الفوضى":

لقد أتاحت لنا القراءات المتواترة لجملة من الأعمال الروائية العربية العديدة التي صدر معظمها في العقدين الأخيرين من هذا القرن، أن نلامس ظاهرة شديدة الأهمية والوضوح، وبالغة الحساسية، ألا وهي ظاهرة الكتابة عن الظواهر الكارثية الجديدة التي عرفها ويعرفها العالم الجديد. ومما يدعو إلى الدهشة، أو ربما قد لا يدعو البتة، أن عالمنا العربي نال نصيب الأسد من ذلك. لقد بتنا نتساءل، بعد كل هذا، هل هذه الظاهرة ظاهرة الكتابة على الكوارث أو النظرية الكارثية هي ظاهرة جديدة لا سابق لها؟ ألم تكن مسبوقة فيما مضى بظواهر مشابهة؟ ثم ماذا تعني بعد كل هذا، خاصة أنها نشأت من جراء الحروب والمآسي التي حطت بكلكلها على العالم العربي، حتى أحالته رمادا أو كالرماد؟ هل هي تجسيد لحالة كارثية للعالم، لا بد أن تنبثق عنها رؤية كارثية للعالم، يكون الكاتب الروائي هو أول معبر عنها؟

في نهاية المطاف، قد يبدو أن هذه النصوص التي جسدت مثل هذه الحالة التي نتحدث عنها، جاءت لتؤكد ما سبقت الإشارة إليه من أن أهمية السرد تكمن في كونه "يشكل خطاطة عن طريقها أو بواسطتها، يمنح الناس معنى، لتجاربهم عن الزمنية، ولأعمالهم الشخصية....."19، وأنه من وظائفه ما أشار إليه بول ريكور في كتابه الضخم والمهم "الزمن والسرد" Temps et récit الذي هو أطروحته الرئيسة التي دافع عنها، يسمى "وظيفة الفينومينولوجية التي بمقتضاها نعطي الشكل والمعنى والتوجيه النهائي لكل تجربتنا الحياتية"[20]، بالإضافة إلى أنه يمنح إلى الزمنية والذاكرة بنية تجعلهما تتجسدان بشكل ملموس21. إن الوظيفة الرئيسة للسرد هي إذن "تقديم "تركيب للمختلفات" synthèse de l'hétérogène بفرض القدرة على إعادة تشكيل تجربتنا الحية التي يغرقها الزمن ويظهرها الخطاب السردي المنتظم"22.

5. الحكاية في رواية "القوس والفراشة":

بداية لا تشكل رواية "القوس والفراشة" حالة خاصة أو شاذة، بل هي دليل على أنها بدأت تتعمم أكثر فأكثر، فالعالم لم يعد عالما مسالما وهادئا، لم تعد تسيطر فيه قيم الخير فقط، بل صارا عالما مليئا بأحداث الفظاعات والانكسارات والخيبات والانهيارات الكبرى.

من ناحية أخرى، ليست هذه الرواية مجرد حكاية تعبر الزمن وتترك آثارها على المكان. بل هي أكبر من ذلك. هي أكثر تعقيدا مما قد نتصورها. فهي رواية تحكي حكايات وأحداثاً حول شخص ينتمي إلى منطقة الريف المغربي يسمى "يوسف الفرسيوي"، وهو كما يدل عليه اسمه ينتمي لمنطقة فقيرة تدعى "تافرسيت"، منطقة توجد شمال المغرب وهي قريبة من شواطئ البحر الأبيض المتوسط شمالا ومن حدود الجزائر شرقا وبشرقها توجد مدينة "وجدة" التي كانت عاصمة للدولة الزيرية والتي بناها زيري بن عطية قبل عشرة قرون (بنيت المدينة عام 996م). ورغم هذه الأصول الريفية (نسبة إلى منطقة الريف) فإن يوسف الفرسيوي يعيش في مدينة الرباط التي هي عاصمة المملكة المغربية، ويتردد على مدينة "زرهون" حيث يعيش أبوه، وهي مدينة تاريخية توجد شمال المغرب.

نكتشف أن يوسف الفرسيوي هذا هو ابن محمد الفرسيوي الذي هاجر إلى ألمانيا، وتزوج، وهو في مهجره، من فتاة ألمانية تدعى "ديوتيما"، وأنجب منها ولدا هو هذا الـ"يوسف الفرسيوي" الشخصية الرئيسية في الرواية.

وتبين لنا الرواية أن الأسباب التي جعلت محمد الفرسيوي يترك منطقته الأصلية كانت متعددة من أهمها موجات الجفاف والمجاعات والأوبئة التي عرفتها الجهة. نتبين كذلك أن محمد الفرسيوي استطاع أن يتأقلم مع ظروفه الجديدة في ألمانيا، ثم في مدينة "زرهون" المدينة التاريخية التي تقع في وسط شمال المغرب، بل واستطاع أن ينجح في حياته نجاحا منقطع النظير جعله يصير تاجرا ثريا بعد أن راكم ثروة كبيرة بعد عودته من ألمانيا.

وتوضح لنا أحداث الرواية أن يوسف الفرسيوي الصحفي والمناضل اليساري التقدمي خلف ابنا هو "ياسين" الفرسيوي الذي ينتمي إلى الجيل الجديد، والذي تم إرساله إلى فرنسا لدراسة الهندسة لكنه سيغير مسار حياته فجأة وبدون سابق إنذار، وسينتمي دون أن نعرف متى وكيف ولم إلى خلية إرهابية تقوم بالجهاد في أفغانستان(؟)، وسيموت بشكل مأساوي في بلاد ليست بلاده، غريبا وبعيدا عن أهله ووطنه. وسيتم إخبار والده عن طريق رسالة من مجهول.

باختصار شديد، نستطيع أن نؤكد أن الرواية يؤطرها هذا الخبر الذي نزل كالصاعقة على الأب يوسف الفرسيوي، وهو الخبر الذي أخبره، عن طريق رسالة جاءته من باعث مجهول، بوفاة ابنه ياسين. إنه الخبر الذي وإن لم يؤثر عليه بالغ الأثر، شكل بالنسبة لمجرى حياته علامة فارقة ستجعل العلاقة بينه وبين زوجته تسوء كثيرا، وبدل تلك الحياة الهادئة التي كانت بينهما، وبسبب الأزمة النفسية التي نشأت عن الحادث المتلخص في فقدان ابنها الوحيد، سينشأ شرخ في علاقتهما وهو ما سيجعل فراقهما في النهاية أمرا لا مندوحة عنه. ولا يتوقف الحكي عند هذا الحد، بل ما سيفاقم مجرى الأحداث ما سيقع ليوسف في آخر الرواية حين سيصبح هو الآخر ضحية من ضحايا الإرهاب الأعمى. وإذا كان الابن "ياسين" قد ذهب ضحية المغامرة الإرهابية في أفغانستان، فإن الأب "يوسف" سيذهب ضحية إرهاب محلي في الأخير، على يد عصام ابن إبراهيم الخياطي بالتبني الذي سيقود عملية إرهابية داخل الوطن، مما يؤكد بالملموس أن الإرهاب لا ملة ولا دين ولا وطن له، بل هو عابر للجغرافيا.

هذه هي أحداث الرواية، إن لم نقل محاورها الرئيسة، ورغم أننا أحببنا التركيز على هذه الأحداث فقط، ولم نرد بالمقابل الإشارة إلى الأحداث الأخرى التي أثارتها الرواية وذلك من قبيل تلك القصص المنفصلة في الظاهر والمرتبطة في العمق بالقصة الإطار، المهيمنة، والتي من أهمها الطريقة التي فقد بها الجد محمد الفرسيوي زوجته الألمانية "ديوتيما" وثروته التي راكمها وبصره الذي يعد من أكبر نعم الله، ليصبح مرشدا سياحيا فقيرا ينتظر السياح الذين يزورون من حين لآخر مدينة "وليلي" الأثرية، ثم أثر حادث انتحار الأم "ديوتيما" الألمانية المفاجئ والمشكوك فيه في الحياة

الوجدانية والنفسية لبطل الرواية يوسف الفرسيوي، ثم التحول المفاجئ لبطل الرواية يوسف الفرسيوي إلى البحث عن حبيبته الأولى بعد طلاقه من زوجته، ثم قصة اختفاء تمثال "باخوس" الذي سيشكل البحث عنه هاجسا يقض مضاجع السلطات والصحافة وسكان المنطقة كلهم، الذين سيعرضهم هذا الاختفاء لأشكال مرعبة من التعذيب. ثم ما سيشكله فندقه البئيس المتبقى من ثروته التي كانت لا تعد ولا تحصى من محط أطماع الكثير من السماسرة الذين سينجحون في دفعه إلى بيعه في النهاية. ويشكل حادث انتحار "ديوتيما" الألمانية فجيعة ستصيب الفرسيوي الأب، رغم أن يوسف ظلت تساوره الشكوك حول علاقة أبيه الفرسيوي بوفاة أمه.

بقي أن نشير إلى أن ما منح الرواية غناها وظلالها الموحية كون أحداثها تجري في أمكنة عديدة وعلى رأسها قرية صغيرة تحمل من الدلالات الكثير، وهي مدينة "وليلي" الأثرية الرومانية التي تحمل رائحة الماضي وعبق التاريخ، والتي يرجع أول استقرار سكاني بها إلى فترة القرن الثالث ق.م، كما تدل على ذلك بعض النقوش البونيقية التي تم العثور عليها والتي تعود إلى فترة حكم الملك يوبا الثالث وبطليموس ما بين سنة 25 ق.م و40 م. يرافق كل هذا حادث عجيب يصادف القارئ هو حادث الاختفاء الملغز والمفاجئ لأحد التماثيل الأثرية التي كان يحويها متحف هذه القرية الصغيرة هو تمثال "باخوس" إله الخمرة المعروف عند الرومان.

هي إذن، رواية متشعبة الأحداث، تفوح بالروائح التراثية والأمكنة العجيبة، أضف إلى أنها، لغويا، تتميز بأسلوبها الشاعري الأخاذ الذي مصدره كون مؤلفها شاعرا قبل أن يكون روائيا. ثم إنها رواية تتحدث عن الواقع المغربي، في لحظاته القاسية، وهي لحظات انهيار قيم وصعود أخرى، نسجتها أيادي الإرهاب الذي لا دين له ولا ملة.

6. التحليل السيميائي:

لا شك في أن التحليل السيميائي، الذي نحاول تطبيقه هنا، بوصفه واحدا من مناهج تحليل رواية "القوس والفراشة"، سيتيح لنا التعرف على مفاصل الرواية ومكوناتها وعناصرها الكبرى، وفي عملنا المحدود هذا سوف نركز على ما نسميه "انبثاق المعنى" من العمل الروائي، وذلك انطلاقا من المنهجية التي وضعتها مدرسة

باريس السردية école de Paris ا، حيث تحولت السيميائيات إلى منهج وأداة لتحليل النصوص الأدبية، على يد أقطاب هذه المدرسة، المكونة من رائدها ألجيرداس غريماس، وتلامذته وزملائه جوزيف كورتيس، وفرانسوا راستيي، وجاك فونتانيه، هذا بالإضافة إلى رولان بارت الذي ساهم مساهمة فاعلة في تخصيب الخطاب السيميولوجي، ومن المعلوم أن هذه المدرسة كانت قد تبنت المنهج الذي انصب اهتمامه بالأساس على "سيميائيات الدلالة"، فكرسوا بذلك كل جهودهم لدراسة الدلالة،

كان ألجيرداس غريماس قد أشار في تنظيراته إلى أن تقدم السيميائيات كمنهج "رهين بالأساس بتوسيع مجالات اهتمامها إلى دراسة الدلالة"23، أو دراسة المعنى، وبناء على ذلك، فإن ما يسمى بـ "الصيرورة الدلالية" التي تقودنا إلى الكشف عن المعنى هي ما سيشكل الموضوع الفعلي والحقيقي للسيميائيات"24، وذلك لأن "مشكل بناء المدلول، كما يشير غريماس، هو سلفا مشكل المعنى"25.

أضف إلى ذلك أن ما تركز عليه القراءة السيميائية يهم البحث عن كيفية تشكل المعنى، من خلال العلاقات بين مكونات النص السردي، فالنصوص السردية، عند السيميائيين، ما هي إلا تمظهرات للمعاني موضوع القراءة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن القراءة السيميائية، سوف تتبع التقسيم الذي يقترحه غريماس والمتلخص في مستويات التحليل الثلاثة: مستوى الخطاب، ومستوى السرد، والمستوى العميق. وقد يتقارب مستوى الخطاب ومستوى السرد لكن المستوى العميق يظل متميزا عنهما.

1. مستوى الخطاب:

لنبدأ من المستوى الأول ونعني به مستوى الخطاب أو المستوى السطحي الذي يعد المستوى الأكثر ظهورا وبروزا26، وهو يقدم لنا أهم مكونات الرواية ونعني بتلك المكونات شخصياتها والإطار الزمكاني الذي تقع فيه الأحداث، أي أننا، من خلال هذا المستوى سندرس سيميائيا بنية الشخصيات في الرواية (أي الشخصيات وعلاقاتها)

والبنية الإطار التي تتضمن حركة الشخصيات داخل الرواية، والتي تشمل الزمان والمكان، والبنيتان معا غنيتان بالإيحاءات التي تتضمنها حكايات "القوس والفراشة".

1.1. سيمياء الشخصيات:

1.1.1. الشخصيات الرئيسة في الرواية:

لقد اهتم علماء السيميائيات بالشخصيات في العالم السردي لما تمثله من أهمية في البناء الحكائي، فهي إحدى البنيات المكونة لخطاب الرواية. هكذا نظروا إليها بوصفها تشكل أحد الأنساق التي تساعد وتضمن مقروئية الحكاية. وقد ذهب فيليب هامون، وهو من اهتم بسيميولوجية الشخصية، في كتابه "سيميولوجية الشخصيات الروائية"27 إلى عدها العلامة التي تقوم ببناء الموضوع، فبدون الشخصية لا يمكن أن يتحقق الموضوع في الرواية.

وبالنسبة لشخصيات رواية "القوس والفراشة" فمن الملاحظ أن الرواية تكاد تعج بالعديد من الشخصيات التي تشكل مجتمع الرواية بدءا من "محمد الفرسيوي" الأب الذي هاجر من تافرسيت إلى ألمانيا، ثم منها إلى زرهون. والذي تعرض لأحداث جسام قادته إلى هجرته الأولى نحو ألمانيا بلاد الحرية والعمل والكسب. محمد الفرسيوي هذا الذي كان يمثل الرجل الطموح الذي يعمل من أجل تكوين ثروة تمثل أمبراطوريته الخاصة، وذلك عن طريق إقامة الفنادق السياحية التي تجذب إليها السياح من كل مكان وتدر أرباحا هائلة. ثم إن ما يشغل محمد الفرسيوي هذا هو ما يمكن تحقيقه بعد عودته من بلاد المهجر "ألمانيا" وهو يحمل تلك الأحلام الواسعة والطموحات الخيالية التي أخيرا يمكنها أن تجعله يستعيد أمجاد عرقه المتأصل في الأمازيغ (البربر) تلك الأسطورة الغائبة التي طواها وأكلها النسيان. لكن طموحات محمد الفرسيوي ستؤول إلى شبه سراب.

لقد انتهت أحلامه كلها، وأصبح لا كما قال الشاعر الجاهلي "مثل البعير الأجرب" ولكن أكثر من ذلك. لقد صار مرشدا سياحيا في المدينة الأثرية الرومانية "وليلي"، يقدم شروحا لزوارها، ويستنطق في السر أطلالها الرومانية الخربة، ويحكي حكايات، من هذه الحكايات ما هو حقيقي، ومنها ما هو خيالي. وليس ذلك فحسب، بل

صار الفرسيوي كما كان أجداده وعرقه، وكما يحكي عنه ابنه يوسف رجلا "صعب المراس، حاد الطبع، مستعداً للدخول في معارك ضاربة لأتفه الاسباب"28. وصار يسخر من نفسه أيضا وهو يتحول إلى بائع أساطير. يقول محمد الفرسيوي: ".. يا له من يوم صعب، أن تبيع للناس أساطير مضحكة، وأسطورتك الخاصة، وأنت لا تملك ذرة واحدة منها، وتبحث في نبرات أصواتهم عن لهفة تستأنس بها، بينما لا شيء، لا شيء، من حياتهم يتسلل إليك، ولا شيء من حياتك ينفذ إليهم كأنهم، وهذه الحجارة، وأنت، وكل شيء في هذه الأمكنة، لفظته أركيولوجيا متسرعة لنفي الزمن خارج الزمن، والمكان خارج المكان، وهذه الحرارة، الحرارة البكماء، الثقيلة! لماذا لا تنبت الأشجار في الخرائب، لماذا لا يجرؤ احد على غرس زيتونة في هذا اليباب"29. وقد يبلغ الألم بالفرسيوي مبلغه حين يخبر بموت ياسين حفيده، في جبال أفغانستان، وكأن موته نهاية لسلالته. وكأنه هو ينعي سلالته الممتدة إلى الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي. يقول الفرسيوي: "السلالة! يا له من اسم ضخم! كأننا سنلد من جديد محمد بن عبد الكريم الخطابي ومن معه. نضبت ينابيع المحاربين، كل ما نلده اليوم تجار ومهربون وسماسرة وباعة شقق، وبعض البهلوانات الذين يجيدون باروديا الحرب، ويركبون فرحين حميراً بالمقلوب"30. كأنها سخرية مُرّة يبوح بها محمد الفرسيوي وهو في أقصى درجات العزلة واليأس.

في المرتبة الثانية، تأتي شخصية يوسف الفرسيوي (ابن محمد الفرسيوي)، المحامي والمثقف والسياسي والمعارض الذي ظل متشبثا بأفكاره القديمة، ومبادئه التي آمن بها خلال السبعينات من القرن الماضي، حيث كانت الأيديولوجيا اليسارية تهيمن على أجزاء من الوطن العربي، وحيث إن يوسف هذا مثقف، وحيث إنه يمثل شريحة من المواطنين الذين اكتووا بنار أحداث مروا بها، فقد جسد الإنسان الحامل لأوهام وأحلام، سرعان ما انتهت إلى كوابيس. إن "يوسف" هو نموذج الشخصية الإشكالية التي وجدت نفسها تلوك الأوهام، فبعد سنوات النضالات التي مضت، ها هي سنوات الألم المضني تأتي، وها هي الحياة وقد صارت باردة، إنه الوضع الجديد ليوسف، وقد فقد حاستي الشم والإحساس باللذة. يقول يوسف واصفا هذه الحالة: "في بداية

عهدي بفقدان الإحساس باللذة، كنت أقاوم الإعاقة التي تنشأ عن ذلك، باستعراض نوع من القدرة على الإنجاز التقني الكامل والمصفى، بطريقة تجعل ما أنجزه تعبيراً عن شعور باللذة دون أن يكون كذلك ... وسعياً وراء هذا التحقق المتواري، ولعت بالطبخ، واكتسبت معرفة موسوعية بالأنبذة وأنجزت أهم الدراسات الفنية عن النحت الروماني وكتبت (رسائل إلى حبيبتي) وهي عبارة عن تأملات في الحب، واليأس، على علاقة بالمرأة التي فقدتها واسترجعت غرامي بها تذكرا دون أن أستطيع تذكرها، وهي التأملات التي نشرتها على حلقات في الجريدة التي أشتغل بها قبل أن تصدر في كتاب اعتبره أحد النقاد أهم كتاب في الحب صدر بعد طوق الحمامة"31.

في المرتبة الثالثة، تأتي شخصية ياسين الفرسيوي الذي لم يظهر كثيرا في تضاعيف الرواية، غير أن اسمه ظهر في مفتتحها، وشكل أحد المفاتيح الأساسية لمغاليق الرواية. ألم تبن الرواية أصلا على ياسين الفرسيوي؟ ألم يشكل موته أو مقتله لغزا، ستكون الرواية بمثابة جواب له؟ يقول بطل الرواية في مفتتحها:

"عندما قرأت الرسالة بسطرها الوحيد، وخطها المرتبك اخترقتني قشعريرة باردة ... كنت قد أصبحت شخصا آخر يخطو لأول مرة في أرض خلاء، وفي هذه الارض الجديدة بدأت أستقبل الاستياء بنوع من اللاإحساس يجعلها سواء بالنسبة لي، ولم أعد أحس بأي أثر للألم أو للذة أو للجمال... كنت عاجزاً تماماً عن إبلاغ شيء له علاقة بالإحساس، لأنني ببساطة لم أعد أحس بأي شيء ... هكذا، بينما كنت أتوجه نحو مكتبي متعرفاً على ملامح الناس وحكاياتهم من روائحهم فقط، أحسست فجأة أن جداراً قد ارتفع بيني وبين العالم، وعندما دققت في الأمر أدركت أنني فقدت بشكل كامل حاسة الشم"32.

أشياء كثيرة ستضاف إلى حالة يوسف الفرسيوي، خاصة بعد قراءته رسالة موت ولده الوحيد، من انقطاعه عن سماع الموسيقى، ومشاهدة الأفلام، وارتياد المعارض والمتاحف، فضلا عن معاناته في استعمال يده، بعد فقدانه حاسم الشم، يقول:

"اختلت حياتي لهذا الحد، عندما قرر ابني الوحيد الذي كان يتابع تكويناً لامعاً بإحدى أكبر المدارس الهندسية الفرنسية أن يذهب إلى افغانستان ويجاهد مع مجاهديها إلى أن يلقى الله، وقد لقيه فعلاً في الأيام الأولى، وفي ظروف غامضة لم أستطع استجلاءها ولما يبلغ العشرين من عمره"33.

وفي المرتبة الرابعة، تأتي شخصيات أخرى عديدة أقل أهمية من حيث الاعتبار، يمكن أن نعتبرها شخصيات إضافية، مساعدة، أو معيقة، حسب التعبير السيميولوجي، مثل شخصية بهية مهدي، زوجة يوسف الفرسيوي التي ستتخلى عن زوجها في الرواية، وستتزوج من صديقه السابق أحمد مجدي المناضل القديم. وشخصية فاطمة بدري عشيقة التي سيجد يوسف الفرسيوي لديها، الحب والراحة، بعد أن تركته زوجته بهية، ومثل صديقيه أحمد مجد، المناضل القديم، ورجل الأعمال الذي يسهم هو الآخر في إرهاب موازٍ لإرهاب التطرف، عبر البيزنس المتوحش الذي يغتال أحلام الفقراء، ويتاجر حتى في التاريخ والجغرافيا، وإبراهيم الخياطي المناصر الحقوقي، والمطالب بالحريات للجميع، والذي تلاحقه تهم "الشذوذ والمثلية"، وصار مكروها حتى من قبل من أحسن إليهما، ومن قام بتبنيهما، وهما عصام ومهدي، بعد ان انتحر أبوهما. إن كلا من أحمد مجد، وإبراهيم الخياطي، تركا الماضي، وانسلخا عنه، ليدخلا عالم المقاولة والكذب والنفاق... ولا تخلو الرواية من شخصيات نسوية محركة للأحداث، ومشاركة في صنعها، كليلى، وفاطمة، صديقتي البطل، والغالية، أخت أحمد مجد.

2.1.1. العلاقات بين الشخصيات:

نقصد من العلاقات بين الشخصيات تلك الروابط الحميمة التي تربط بينها، خاصة بين البطل "يوسف الفرسيوي" والشخصيات الأخرى الدائرة في فلكه أو المجاورة له. فهناك محمد الفرسيوي الأب، الشخصية المحورية التي قادت بطل الرواية "يوسف" إلى مصيرها السيكولوجي المحتوم، والعلاقة بين يوسف ومحمد علاقة شابها الانفصام منذ البداية. لقد عانى يوسف من فقدان أمه "ديوتيما" الألمانية، وداخله شك كبير عصف به وبالعلاقة بأبيه. يقول: "أنا يوسف الفرسيوي وهذا أبي، أنجبني

من ألمانية رقيقة، لم تجد طريقة أقل سوء لإنهاء حكايتها المضطربة سوى الانتحار في يوم مفتوح للصيد قضته مع والدي (...) في طريق العودة طلبت من والدي أن يمر من الطريق الجبلي الذي يطل في قسمه الأول على المدينة وفي ما تبقى منه على الاطلال (...) وعندما استدار والدي ليصرخ فيها تعبيراً عن مشاعره الفياضة، لم يجدها حيث توقع، وسمع الطلقة النارية كأنها تحت هيكل السيارة، فاندفع مذعوراً ليرى والدتي ممدة بلا جمجمة تقريباً قبالة ضريح المولى إدريس الأول، وغير بعيد عن الأطلال الرومانية التي غربت الشمس قبل قليل في وحشتها"34. وللتعبير عن شكوكه في مقتل أو انتحار والدته يضيف يوسف الفرسيوي قوله: "دخلت منذ الحادث الذي أودى بحياة والدتي في اضطراب كبير لم أبرأ منه حتى اليوم فقد أقمت لمدة تزيد عن سنة عند خالي الذي كان يشتغل موظفا في السفارة الألمانية بالرباط، وقد أبلغته هواجسي، وأكدت له أن الفرسيوي كان يكره أمي، وأنني لا أستبعد أن يكون قتلها، مما دفع بي إلى إبلاغ سلطات بلاده بهذه التفاصيل، فنتج عن ذلك تحقيق طويل لم يصل إلى شيء ولكنه انتهى بوالدي إلى الاعتقاد بأنني حملت دون ريب بذرة الشر من الدم الجرماني الذي داهم دمائي الريفية القحة، وانتهى بي إلى العيش في مؤسسته للرعاية بفرانكفورت حيث قضيت أعواماً رمادية من مراهقتي وشبابي متيقظا أنني لن أنجح أبدا في استعادة علاقتي بالفرسيوي ومحيطه"35.

هكذا تتجلى لنا علاقة التوتر الأول بين الأب وابنه. وتبلغ درجات التوتر أقصاها عند انهيار علاقة أخرى وهذه المرة بين يوسف وزوجته بهية مهدي. بهية التي قررت هجرانه والالتحاق بصديقه القديم أمجد زوجة له. لقد عانى يوسف الفرسيوي الألم الشديد، وهو يرى علاقته بزوجته بهية تنهار وتتلاشى، حتى صارت هذه العلاقة الجسدية التي ربطت يوسف الفرسيوي بزوجته بهية مهدي مجرد "انسجام يبدأ بحركات محسومة منذ الأبد، وينتهي بحركات محسومة منذ الأبد ليتبقى في نهاية المطاف رماد لا أثر فيه لجمر اللحظة، رماد بركاني من عصر سحيق، بارد ومتحجر، لا يخرجه من وهاده السحيقة سوى تنفسنا البطيء الذي يشبه تنفس مومياءات هامدة". التوتر الثالث بعد توتري "الأب" و"الزوجة" هو توتر "الابن" ياسين. ياسين

هذا الذي رحل ليتابع دراسته العليا بإحدى أكبر المدارس الهندسية الفرنسية والذي قرر في لحظة من اللحظات الذهاب للجهاد مع طالبان في أفغانستان وانتهت الرحلة بمقتله في ظروف جد غامضة وعمره لما يبلغ العشرين. ويظهر توتر علاقة يوسف وياسين حين يبدأ الأول في التساؤل، مثلما تساءل من قبل حول والدته، عن حياة ابنه. يقول يوسف: "من اللحظة الأولى لمعرفتي بالخبر، ملأت كياني فورة غضب عارمة منعتني من الألم والحزن، ولو قدر لي أن ألتقي ياسين في تلك اللحظة لقتلته. لماذا يفعل بي هذا الشيء القبيح والساخر والمجبر والمهين؟ ثم متى حصل ذلك، متى نبتت تلك البذرة المسمومة؟ قبل أن يولد؟ أو بعد ذلك؟ أيام كان طفلاً أو مراهقاً، هل كان يلعب بيدين مضرجتين بالدماء ولم نكن نرى ذلك، هل كنا نعيش ونحن نمشي خلف نعش بيننا؟؟؟"36.

هذا هو نوع العلاقة التي ربطت بطل "القوس والفراشة" بالشخوص الأخرى المؤثرة (أو الممثلين) في مجرى الرواية، وداخل المتخيل الروائي، فنجد أن البطل أو الذات الفاعلة (يوسف) تعيش مسارها السردي وهي في حالة انفصال ومن ثم فإنها في مسيرتها السردية، وعبر البرنامج السردي المحدد لها، لم تحقق الاتصال الذي ترغب أو تطمح إليه، فهي تعيش الانفصال عن الشخصيات الأخرى وعن الأهداف التي تصبو إليها, كل ذلك يتحقق في علاقة يوسف مع أبيه، ثم مع أمه، ثم مع ابنه، ثم مع زوجته، وكذلك في علاقاته مع أصدقائه القدامى الذين قاسموه مبادئ اليسار في الظروف التي عاشها البطل في عقد السبعينات المشهور في المغرب بحالة الاستثناء والقمع والتعذيب والتوق إلى التحرر والحرية.

ومن المفيد أيضا أن نشير إلى أن الرواية تضمنت عددا من الممثلين الذين كانت لهم أدوار ثيماتيكية محدودة لكنها أسهمت بصفتها أدوارا في رفد المسار السردي للرواية.

2.1. سيمياء البنية الإطارية:

تتحقق البنية الإطارية في رواية "القوس والفراشة" من خلال المكونين الأساسيين: الزمان والمكان، وهذان المكونان هما بعدان أساسيان في تحقق الفعل الحكائي، وبدونهما لا يتحقق هذا الفعل.

1.2.1. بنية الزمن:

إن بنية الزمن هي إحدى البنيات المكونة للخطاب السردي، والزمن في "الرواية" زمن متعدد فيه الماضي والحاضر والمستقبل.

الأحداث تمتد على مساحة زمنية لا بأس بها، ربما تبدأ من تاريخ قديم، نؤرخ له ببداية نهاية الاستعمار، إذ ثمة إشارة إلى الحرب العالمية الثانية التي قتل فيها والد زوجة محمد الفرسيوي الألمانية، وتمتد هذه الأحداث، مرورا بزمن الاستقلال وعقد السبعينات تحديدا، إلى الزمن الحاضر أو زمن الألفية الثالثة، زمن أفغانستان والجهاد، والعولمة، والتحولات الجديدة، والإسلام السياسي. ذلك هو زمن الرواية، وربما جاز لنا أن نميز فيه بين ثلاثة أزمنة: زمن الجد محمد الفرسيوي القديم حيث بدايات الأحلام وبداية الهجرة والنجاح والثراء، ثم زمن القمع والسجون والنضالات، زمن السبعينات ويوسف الفرسيوي ورفاقه في اليسار، وأخيرا زمن الجهاد والإسلام السياسي وأفغانستان وبن لادن. وهو زمن ياسين الفرسيوي بامتياز.

2.2.1. بنية المكان:

إن بنية المكان بوصفه مكونا آخر يحقق الفعل الروائي هي بنية أساسية في رواية "القوس والفراشة"، ومن دون هذه البنية لا تتحقق الحكاية. إن بنية المكان مثلها مثل بنية الزمان، مكون يجمع بين شخوص الرواية ويجعلهم يتحركون في دوائر، دائرة "تافرسيت"، المكان الذي ولد ونشأ فيه وقضى محمد الفرسيوي الأب طفولته، وهو مسقط رأسه قبل أن يهاجر إلى ألمانيا، ثم دائرة "وليلي" التي ستحتضن محمد الفرسيوي بعد أن فقد ثروته وصار جريحا يبيع الأوهام والأساطير للسياح الذين يزورون هذا المكان السياحي العابق بروائح اليونان، ثم دائرة فرنسا وأفغانستان. غير أن الدائرة التي تأخذ مساحة أوسع هي دائرة الرباط حيث يعيش البطل الراوي والشخصية

الرئيسية في الرواية "يوسف الفرسيوي"، ومن الأمكنة الأخرى التي تحضر داخل المتن الروائي أمكنة رئيسة، وهي (مراكش، والدار البيضاء،...)، وأخرى ثانوية هي دوسلدورف بألمانيا، وأفغانستان، وإسبانيا، وأمكنة أخرى خاصة هي الحانة، والمنزل، والمقهى، والطريق، والشارع... إن هذه الأمكنة تشكل الإطار المكاني الذي تتحرك فيه الأحداث وتتشكل، خاصة مدينة وليلي، وهي مقر محمد الفرسيوي، وهو يشكل ذاكرة الأب وأصل، العائلة وفيه تحضر الأحداث المعبرة عن الماضي. والرباط، وهي مكان إقامة يوسف الفرسيوي، وهو المكان الرئيسي في الرواية لأنه المكان الذي ينطلق منه السرد، ويتم فيه الاستحضار، كما أن علاقات الفرسيوي تتم داخل هذا الإطار الذي يشمل الأمكنة الأخرى (الشارع، والمكتب، والمنزل.) كما تحضر مدينة مراكش وهي مدينة المتناقضات، فهي مدينة البهجة واللذة والترفيه، وفي نفس الوقت مدينة الفساد المستشري، فساد المضاربين العقاريين، والإداريين. كما أنها تشكل فضاء للموت والمأساة، حيث ستنتهي فيها حياة البطل.

إن بنيتي الزمن والمكان بنيتان أساسيتان، تقومان بالربط بين شخصيات الرواية وأحداثها، وتؤطران الأحداث التي تبني الحكي والمعنى.

2. المستوى السردي:

يقع المستوى السردي Niveau Narratif بين مستوى الخطاب الظاهر والجلي والذي تتجلى من خلاله دلالة الخطاب الظاهرة والجلية والمستوى العميق الذي يشمل المادة الأولية للرواية، ومما يشمله هذا المستوى، ونقصد به المستوى السردي، ما يعرف بالبنية العاملية والبرنامج السردي.

1.2. البنية العاملية:

تتيح لنا "الخطاطة العاملية" معرفة وفهم الدور الذي تلعبه مختلف شخوص الرواية. وتعني "الخطاطة العاملية" تمثيل مختلف الأفعال التي تظهر في السرد. فالفعل تقوم به شخصية أو عدة شخصيات. إن الأمر هنا يعني تحليل الشخصيات ودورها في الحكاية.

وتفترض البنية العاملية مجموعة من العوامل، أي شخصيات، وقد عرضنا لمختلف الشخصيات في الفقرات السابقة.

ويمكن أن تكون هذه العوامل أو الشخصيات أبطالا أو موضوعات للقيمة، أو مرسلين أو مرسلا إليهم، أو معاكسين أو مساعدين37، ويميز غريماس بين نوعين من العوامل هما:

أ. عوامل الاتصال: وتتعلق بالعوامل التي تنتج الكلام المتلفظ به، وهي التي تقوم بوظيفة نقل مجريات الأحداث التي وقعت في الماضي والحاضر، أحداث عائلة الفرسيوي:

. السارد أو المتكلم ـــــ/ المسرود له أو المخاطب.

فيوسف الفرسيوي الذي يقوم بدور البطولة في الرواية، هو السارد وهو المتكلم في الرواية، زيادة على كونه يقوم بدور البطولة. ثم إنه يشكل البؤرة الرئيسة الموجهة للأحداث، منه تنطلق أحداث الرواية وإليه تنتهي. ويساعده في ذلك أبوه محمد الفرسيوي الذي يتحمل مسؤولية قسط كبير من الأحداث، وابنه ياسين الذي لا نعرف عنه أشياء كثيرة، إلا أنه كان في فرنسا يتابع دراسته الجامعية في الهندسة، ثم ما لبث أن هاجر مع الجهاديين إلى أفغانستان، للوقوف مع طالبان في معركتها ضد قوات الولايات المتحدة.

ب . عوامل السرد: وهي العوامل التي تتمثل في الذات، والموضوع، والمرسِل، والمرسَل إليه، والمساعد، والمعاكس. وهي التي تشكل الملفوظ السردي كله، فالملفوظ السردي هذا، ينهض على العلاقة التي تجمع بين العوامل الستة التي تكوّنه، وهي العوامل الموزعة على ثلاثة محاور، هي محور الرغبة، ومحور التواصل، ومحور الصراع. وعبر هذه المحاور تتضح الحالة السردية38 التي سماها غريماس باسم "الخطاطة العاملية"، وهي كالتالي:

. الذات ـــ/ الموضوع ـــ/ محور الرغبة

وهنا، تقع علاقة بحث الذات (البطل) عن موضوعها الذي هو الاستقرار.

. المرسل ـــ/ المرسل إليه ـــ/ محور الاتصال

وهنا، تقع علاقة التواصل بين المرسل والمرسل إليه التي تمر عبر علاقة الرغبة بين الذات والموضوع.

. المساعد ـــ/ المعاكس ـــ/ محور الصراع

المساعد والمعاكس عاملان يساعدان أو يعاكسان البرنامج السردي التي تؤديه الذوات.

2.2. البرنامج السردي:

ويقصد به مجموعة الوحدات السردية المتعلقة بالتركيب الوظيفي الذي يمكن تطبيقه على كل الخطابات السردية ومجموعة التحولات التي تكون نتائجها مترابطة سواء من حيث الفصل أو الوصل بين الذات والموضوع والتي تشكل المكونات السردية المرتبطة فيما بينها وفق منطق محدد. وبهذا الشكل فالبرنامج السردي فعل تقوم به الذات لتغيير حالها، وبمعنى آخر يكون البرنامج السردي جملة من الإنجازات التي تهدف إلى تغيير حالة معينة39. إنه يشكل فعلا، من دونه، لا يمكن للسرد أن يتحقق، كما يرى غريماس.

وينبني فعل السرد على وجود مشاركين يمثلون عوامل فعل السرد الستة:

. المرسل ـ الموضوع ـ المرسل إليه

. المساعد ـ الذات ـ المعاكس

3. المستوى العميق:

وهو المستوى الثالث والأخير في تحليلنا، وقد سماه غريماس "المستوى التجريدي" أو مستوى "التركيب النحوي" الذي تتحقق فيه القيم الأساسية للنص"40. ويتكون هذا المستوى من المربع السيميائي الذي تم أن اقترحه غريماس، والذي يؤدي وظيفتين: من جهة يمثل خلاصة الدراسة السيميائية، ومن جهة أخرى، يختزل النص في مجموعة من المحاور القائمة على الثنائيات الضدية التي تقوم عليها رواية "القوس والفراشة"، مثل الخير أو الشر والحب أو الكراهية، والحرية أو العبودية، والتي تسعى "القوس والفراشة" لإيصالها إلى القارئ. إن المربع السيميائي، بعبارة أخرى، هو "البنية الأولية للدلالة"، وقد وضعه غريماس انطلاقا من قراءته

للمشروع البروبي، فهو يصر على أن الوظائف تستعمل بوصفها "تلخيصا لمختلف مقاطع الحكاية أكثر مما تعين الأنشطة التي يقوم فيها التتابع بمهمة إظهار القصة كبرنامج منظم"41. وبالنسبة لغريماس ف "المربع السيميائي هو قبل كل شيء بنية انبثاق تسعى إلى تمثيل كيف يتم إنتاج الدلالة عن طريق سلسلة من العمليات الإبداعية"42

يتبين لنا، انطلاقا من فهمنا للمربع السيميائي ولمحتوى الرواية، أن أهم تيمات الرواية تتجسد في أربع تيمات: الإرهاب والفساد والذاكرة والوجدان. هذه هي أهم المكونات التي تشكل عالم "القوس والفراشة"،إن هذه التيمات "تحضر متقاطعة ومنسجمة ومتداخلة وهي الطريقة التي حاول من خلالها الكاتب بسط ثلاثة أزمنة مختلفة وثلاثة أجيال مختلفة: جيل محمد الفرسيوي الأب: وهو الذي يشكل نواة العائلة والمحافظ على انتمائها الريفي والذي حقق ثروة طائلة ومد جسورا متباعدة بين أصوله المغربية وأصول زوجته الألمانية، وكذا الأبعاد الرومانية الأخرى نظرا لما تمثله وليلي كمدينة أثرية من رمزية حضارية. (و) جيل يوسف الفرسيوي الابن: وهو جيل تربى في أزمنة القمع ومارس السياسة، إنه جيل يساري آمن بالثورة في وقت معين، لكنه تخلى عن مبادئه وبدأ يتعلق بأهداب رجال السلطة. إن يوسف مازال فيما يبدو محتفظا بمبادئه من خلال نضاله على جهات أخرى وهي الصحافة التي يفجر فيها قضايا الفساد العقاري وغيرها من القضايا الأخرى. (و) جيل ياسين الفرسيوي الحفيد: وهو جيل الزمن المعاصر الذي تختلف أوضاعه عن أوضاع سابقيه، فياسين ولد في أسرة ميسورة نسبيا وفرت له تعليما جيدا وأرسلته إلى لفرنسا لإتمام دراسته، لكن رغم ذلك تلقفه الفكر الظلامي، الذي سيرسله إلى الجحيم... كما أن هذا الجيل ترمز إليه المجموعات الموسيقية الشبابية التي تتعاطى الألوان الموسيقية الغربية وتعبر عن تصوراتها الخاصة مثل عبادة الشيطان مثلا"43. هي إذن أجيال مختلفة المشارب والأفكار، متعددة الوجوه والأشكال.. تحاول أن تجد مكانا لها تحت الشمس. أما ما يقع لهذه الأجيال فهي "تحولات قيمية ووجدانية عميقة تعبر عنها هذه الأشكال من التعبير"44.

خاتمة:

نخلص من بحثنا هذا إلى تأكيد الخلاصات التالية:

1.تشكل رواية "القوس والفراشة" لمحمد الأشعري نصا إبداعيا غنيا، وقد عبرت بشكل دقيق وعميق عن تحولات المجتمع المغربي، بل والمجتمع العربي في ظل العولمة والتحولات العميقة التي مست البنى الثقافية والفكرية والاجتماعية.

2. وبناء على ذلك فقد حق لنا أن ندرجها ضمن نصوص ما سميناه بـ "رواية العوالم المضطربة" التي لها أكثر من علاقة بنظرية الفوضى أو (الكاوس)، هذه النظرية التي تعني فقدان الضوابط التي تضبط العالم وتخلق فوضى عارمة تترسخ في الأفكار والسلوكات البشرية.

3.ومن الناحية المنهجية، يتأكد لنا أن المقاربة السيمائية للنص السردي مقاربة تتيح لنا الاقتراب من مفاصل الرواية واكتشاف الطرق التي بواسطتها ينبثق المعنى. وهي من المقاربات الغنية بالتطبيقات العلمية المختلفة التي الغاية منها إظهار مكونات النصوص وبنياتها في مستوياتها المختلفة بدءا من المستوى السطحي ومرورا بالمستوى السردي وانتهاء بالمستوى العميق، وقد لا حظنا أن سيميائيات الأشكال السردية تكاد تكون غائبة عن اهتمام النقاد العرب نظرا لصرامة المنهج وأدواته ولصعوبة التعامل مع النصوص الروائية العربية. وتشكل محاولتنا هذه مجرد مقاربة تحتاج إلى تطوير وتجويد بهدف الإجابة عن السؤال السيميائي الجوهري: من أين ينبثق المعنى؟

مراجع البحث وإحالاته:

1 Greimas, avec la collaboration de F. Rastier : le jeu des contraintes sémiotique in du sens, Paris: Seuil, 1970, 135-136

2 https://www.emaratalyoum.com/life/culture/2011-03-23-1.371700

3 ملحق الخليج الثقافي بتاريخ: 2011/03/26

4 المرجع نفسه.

5 جريدة الرياض السعودية، السبت 19 جمادى الاخرة 1435 - 19 ابريل 2014م - العدد 16735

6 مجلة رباط الكتب 9 يناير 2012

7 المرجع نفسه.

8 Duffrenne MIKAEL poétique-PUF-1963- p :7

9 حورية الخمليشي مجلة رباط الكتب 9 يناير 2012

10https://www.researchgate.net/publication/328917048_alfqdan_walkhrab_fy_rwayt_alqws_walfrasht_lmhmd_alashry.

11 J. Courtes : Introduction à la Sémiotique Narrative et Discursive, 1976, coll. Hachette Université, p.13.

12 المرجع نفسه.

13 المرجع نفسه.

14 POLKINGHORNE, D. E. (1988). Narrative Knowing and the Human Sciences. Albany: State University of New York Press.

15 المرجع نفسه، ص 3.

16 المرجع نفسه، ص 183.

17 نقلا عن د. حميد لحميداني، مَدلولاتُ تَشتُّتِ البنيةِ والمحتوى في الرواية العربية، مداخلة ألقيت في الندوة الدولية حول الرواية الغربية والعوالم المضطربة، 17 و18 أبريل 2018. ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة ، وانظر:

Patrick Brady Théorie du chaos et structure narrative. Publié en Pdf sur la page web suivante : http://ecf.humanities.mcmaster.ca/wp-content/uploads/sites/15/2015/09/brady.pdf

18 المرجع نفسه.

19 POLKINGHORNE, D. E. Narrative Knowing and the Human Sciences. Albany : State University of New York Press. (1988).

20 Paul Ricœur Temps et récit,coll. Procope. Paris, Cerf, 1990, p.123.

21 Denis Bertrand, De la narratologie à la narrativité, et retour, Pratiques, 181-182 | 2019

22 المرجع نفسه.

23 ابن مسعود محمد العربي: السيمائيات الدلالية المحايثة لدى غريماس، من الدلالة البنيوية إلى السيمائيات: مج أنسنة، للبحوث والدراسات، جامعة زيان عاشور في الجلفة، ع ،6 ديسمبر 2012:ص.56.

24 سعيد بنكراد : السيميائيات وموضوعها: مجلة إسراف (علامات) ، ع ،16م : 2001 , 4 ، ص.5

25 Greimas, A .J, Du sens, Essai Sémiotique du texte, Paris, Le Seuil, 1970.p. 10.

26 سعيد بنكراد : السيميائيات وموضوعها: مجلة إسراف (علامات) ، ع ،16م : 2001 , 4 ، ص.5

27 فيليب هامون: سيميولوجية الشخصيات الروائية :ت ,سعيد بنكراد، دار الكلام, المغرب. 1990 ,

28 القوس والفراشة : 67 .

29 المصدر نفسه : 183.

30 المصدر نفسه : 183 .

31 المصدر نفسه:12 ـ 13.

32 المصدر نفسه: 9 .

33 المصدر نفسه: 15.

34 المصدر نفسه : 64 ، 65.

35 المصدر نفسه : 66 .

36 المصدر نفسه: 16-17 .

37 تزفيتان تودروف : مفاهيم سردية : ت, عبد الرحمن مزيان, منشورات الاختلاف , ط :1,2005ص 112.

38 غريماس :في المعنى :ص 106 ،

39 المرجع نفسه.

40 برونوين ماتن وفليزيتا سرينجام: معجم المصطلحات السميوطيقا: ت, عابد خزندار، المركز القومي للترجمة، مصر، ط : 2008،1ص24

41 د.سعيد بنكراد: مدخل إلى السميائيات السردية: ص 21- 22 .

42 دانيال باط، المربع السيميائي والتركيب السردي، ترجمة عبد الحميد بورايو، مجلة بحوث سيميائية، مجلد 3، العدد 3، ص 145.

43 رواية "القوس والفراشة" لمحمد الأشعري: أو في تناقضات المجتمع المغربي، الرواية نت، يونيو 27, 2017

44 المرجع نفسه.

مصادر البحث ومراجعه:

مصدر البحث:

1. القوس والفراشة : محمد الاشعري ، ط3 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 2011.

مراجع البحث باللغة العربية:

1. د.سعيد بنكراد: السميائيات السردية (مدخل نظري): منشورات الزمن، الرباط 2001.

الكتب المترجمة:

1. فيليب هامون: سيميولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة: سعيد بنكراد، دار الكلام, المغرب. 1990 ,
2. تزفيتان تودروف: مفاهيم سردية: ترجمة عبد الرحمن مزيان, منشورات الاختلاف , ط :1,2005.
3. ألجيرداس غريماس: في المعنى (دراسات سيميائية)، ترجمة: د نجيب غزاوي، :مطبعة الحداد اللاذقية، د.ت.سوريا.
4. برونوين ماتن وفليزيتا سرينجام: معجم المصطلحات السميوطيقا: ت, عابد خزندار، المركز القومي للترجمة، مصر، ط 1: 2008.
5. دانيال باط المربع السيميائي والتركيب السردي، ترجمة عبد الحميد بورايو، مجلة بحوث سيميائية، مجلد 3، العدد 3.

الكتب الأجنبية:

1. J. Courtes : Introduction à la Sémiotique Narrative et Discursive, 1976, coll. Hachette Université.

2. POLKINGHORNE, D. E. (1988). Narrative Knowing and the Human Sciences. Albany: State University of New York Press.

3. POLKINGHORNE, D. E. Narrative Knowing and the Human Sciences. Albany : State University of New York Press. 1988.

4. Denis Bertrand, De la narratologie à la narrativité, et retour, Pratiques, 181-182 | 2019

5. Greimas, A .J, Du sens, Essai Sémiotique du texte, Paris, Le Seuil, 1970.

6. Duffrenne MIKAEL poétique-PUF-1963.

المراجع الإلكترونية:

1. https://www.researchgate.net/publication/328917048_alfqdan_walkhrab_fy_rwayt_alqws_wal frasht_lmhmd_alashry.

2. https://www.emaratalyoum.com/life/culture/2011-03-23-1.371700

3. http://ecf.humanities.mcmaster.ca/wp-content/uploads/sites/15/2015/09/brady.pdf

4. Patrick Brady Théorie du chaos et structure narrative. Publié en Pdf sur la page web suivante : http://ecf.humanities.mcmaster.ca/wp-content/uploads/sites/15/2015/09/brady.pdf

الدراسات:

1. د. حميد لحميداني، مَدلولاتُ تَشتُّتِ البنيةِ والمحتوى في الرواية العربية، مداخلة ألقيت في الندوة الدولية حول الرواية الغربية والعوالم المضطربة، 17 و18 أبريل 2018. ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة ،

2. ابن مسعود محمد العربي: السيمائيات الدلالية المحايثة لدى غريماس، من الدلالة البنيوية إلى السيمائيات: مج أنسنة، للبحوث والدراسات، جامعة زيان عاشور في الجلفة، ع ،6 ديسمبر 2012:.

3. سعيد بنكراد: السيميائيات وموضوعها: مجلة (علامات) ، ع ،16م : 2001.

المقالات الصحفية:

1. ملحق الخليج الثقافي بتاريخ: 2011/03/26.

2. جريدة الرياض السعودية، السبت 19 جمادى الاخرة 1435 - 19 ابريل 2014م - العدد 16735.

3. حورية الخمليشي مجلة رباط الكتب 9 يناير 2012.